حمـــار آخر . . . !

الترام الجاهد يسير عملا ليس فيه ركن أو عمر أو مدخل أو شبر على السلم إلا ويشغله الراكبون متلاصقين متضاغطين كأنما لم يأتهم نبأ هذا الوباء الذى خوف الناس بعضهم من بعض ...

وأنا فى مقعدى أسأل نفسى متعجباً كيف ينزل من يريد أن ينزل فضلا عن أن يركب من يريد أن يركب ! ودقت باب الدرجة الأولى يد وحاولت فتحه ولكنه لم يفتح لأن شخصاً كان يسند ظهره إليه ، وهو لا يستطيع أن يتحرك من موضعه إلا أن يتحرك من يقف أمامه ، ولن يستطيع هذا أن يفعل إلا أن يمكنه من يليه ... واشتد طرق الباب فتضاغط الواقفون ، وانفتح الباب ودخل هذه الحجرة المكتظة فتاتان عجبت وعجب الراكبون كيف خلصتا من الزحام حتى دخلتا الحجرة ، وما أحسبهما إلا استحالتا هواء فنفذتا من بين الأرجل أو من فوق الرؤوس حتى بلغتا حيث وقفتا بين الواقفين .

ووقف الترام فنزل اثنان من الواقفين وقد شقا طريقهما فى جهد من جهة السائق ولم يركب أحد ، ثم وقف ونزل ثلاثة ولم يركب أحد ، وبقيت الفتاتان فاستندت إحداهما إلى باب والثانية إلى الآخر .

وكانت إحداهما على جانب عظيم من اللباقة والسحر تحدث أثرها فى النفوس بنظراتها وبما يبدو من براعة ذوقها فى اختيار ألوانها وأشياء زينتها ؛ وكانت الثانية كأنما تصحبها لتزيد جمالها أو لتنبه عليه فقد كانت بحيث أن انتماءها إلى جنسها مما يجعل أحياناً نعته باللطف نوعا من السخرية ...

وصوبت الحسناء نظرة إلى شاب كان فى سمت بصرها فكأنما نفذت نظرتها إلى قلبه وكأنما أراد أن يبرهن لها على أنه جدير منها بهذه النظرة ، فنهض واقفاً ودعا الفتاة إلى الجلوس فى موضعه وإنه ليتظرف ويتأنق ويستلين فى إشارته وحركته ويلطف فى نبرته وعبارته حتى لقد أوشك أن يكون ما ينعت به جنسه من الخشونة ضرباً من التعسف ...

ونظرت الفتاة وقد استقرت فى مقعدها إلى صاحبتها مزهوة دون أن تشكر هذا التظرف المتلطف بكلمة ، وضحكت وقالت عبارة لا هى عربية ولا فرنسية ولا إنجليزية ؛ وضحكت الثانية وأظهرها ضحكها برهاناً آخر على مبلغ ما يكون بين جنسها وبين اللطف من بعد الشقة ... واحمر وجه الفتى حتى كاد أن يقطر منه الدم ، وأشار بيده إلى التى سحرته فتخلى لها عن مكانه إشارة من نسى شيئاً على القصد فلم تكد تقف حتى انفتل فعاد إلى مكانه وجلس وهو يقول لها فى غيظ ابحثى عن حمار غيرى فلست حمارا !

واصفر وجه الفتاة بقدر ما أحمر وجه الفتى ولم تكن تدرى أنه يعرف الطليانية ؛ فقد نظر الفتى الظريف الناعم إلى من حوله وهو يدق يداً بيد ويقول إنها تقول لصاحبتها انتظرى ريثما يقف حمار آخر فاجلسى ؛ فيكون جزائى على إنسانيتى أن أكون عندها حماراً وأن يكون هذا مبلغ شكرها لى !

وكان حقاً أن نغضب جميعاً وأن يحاول كل منا أن ينفصل من حماريته بكل ما فى طاقته ، فقال كهل من الجالسين يخاطب الفتى : « ليس هذا جزاءك على إنسانيتك وإنما هو جزاؤك على مصريتك فإنا فى الواقع لسنا كرماء لضيوفنا بل نحن عبيد لهم . أفهم أن تنهض لتجلس مريضة أو عجوزا أو أماً بين ذراعيها طفلها أما أن تقف لهذه ... أرأيت أجنبيا ينهض لمصرية قط ؟ متى نفهم هؤلاء الأجانب أننا سادة فى بلادنا وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نفهمهم ذلك بأخذ ما فى أيديهم مما بنوه فى غفلتنا فلا أقل من أن يعلموا أننا صحونا . لا أقل من أن يفهموا أننا لم نعد بعد حميرا ».

ونظر هذا الثائر الكهل إلى الفتاة المسيئة وقال لها فى مثل شراسة النمر « إنزلى من هنا روحى فى داهية » ... وتنمرت اللعونة كأنما تذكرت أيام الامتيازات ورأيتها بجوار الباب كالقطة وجدت نفسها فى مأزق فعولت على أن تعض بأسنانها وتخمش بمخالبها ...

ولكن النمر الغاضب جذبها من ذراعها ، ونادى السائق فوقف ، وصرخت القطة صرخة جمعت علينا الركاب من العربة الأخرى وأقسم الرجل إن لم تنزل هى وصاحبتها على أرجلهما فسوف يلقى بهما من النافذة ...